

العِمامَةُ فِي التراثِ الْعَرَبِيِّ



◀ من مبادئ الإسلام و تعاليمه السامية ارتداء الخشن من الملابس لرجال الأُمّة، ولقد نهى الرسول العربي الأمي الصادق الأمين محمد بن عبد الله (ص) عن لبس الحرير لرجال أمته، حيث قال: "إِنَّمَا يَلْبِسُهُ هَذَا - يَعْنِي الْحَرِيرَ - مَنْ لَا خَلَقَ لَهُ".

العمامة العربية "تاج الرأس العربي":

هي قطعة طويلة منسوجة من قماش الصوف أو القطن أو الكتان تلف على الرأس عدة لفات وتلوي عليه. وكان أجدادنا عرب، الجاهلية يعتبرونها زينة للرأس ووقاء له من الأذى، ويتلذمون بالطرف الزائد منها، وبعضهم يغطي الجزء الأسفل من وجهه بطرف العمامة عندما ينزل إلى الأسواق والمواسم حتى لا يعرفه عدو أو طالب ثأر فينتقم منه، وهذه العادة ما زالت مستعملة حتى هذا اليوم عند العرب الآخر - ونعني بهم عرب العهد العثماني - وكان أجدادنا عرب الجاهلية يستفيدون من عمائهم في أسفارهم البعيدة عند شعورهم بالجوع أو الألم حيث يلفونها على بطونهم، لذلك لا تستغرب عندما أطلقوا على العمامة اسم "دستور الأمان".

وعندما جاء الإسلام العظيم أكد على العمامة وحث على لبسها وإكرامها وقد نسب إلى الرسول محمد (ص) قوله: "العمائم تيجان العرب، فإذا وضعوا العمائم وضع الله عزّهم"، وبسبب كبر العمامة العربية وكثرة طياتها أجاز علماء المسلمين المسح عليها عند الوضوء. ويدرك لنا التاريخ الكثير من العلماء المتميزين بكثير عمائهم المفرط في بعضها كأنها الطبق تعادل رأس لبسها بأضعاف مضايفة، وكان العرب يعتبرون نزع العمامة من على رأس لبسها إهانة كبيرة له، لذلك فهم لا يجيزون خلع العمامة وكشف الرأس إلا في المناسب تبعداً وذلاً، ومن أكبر العقوبات التي يتعرض لها العربي هي عقوبة نزع عمامته من على رأسها، ولا تصدر هذه العقوبة إلا من جهة متنفذة كالملك أو الحاكم أو القاضي، وهذا شاعر العرب الكبير أبو الطيب المتنبي (ت 354هـ) يؤكد بأنّه سيطلب حقه بالقوة، بالرماح وبرجاله المشايخ الذين من طول ما تلذموا بأطراف عمائهم أصبحوا أنهم شباب مرد - بمعنى زال الشعر من وجوههم - يقول:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ *** لأنهم من طول ما التلذموا مرد

ومن الشعر الشعبي، يقول الفارس حثلين (ت 1310هـ / 1892م) شيخ قبيلة العجمان اليمانية، هذا البيت من قصيدة طويلة، واصفاً كبر عمامة الشيخ الفارس محمد بن هادي ابن قرملة شيخ قبيلة قحطان:

تلفي لابن هادي كبير العمامة *** شيخ ورمحه مع أهل الخيل مرسام

وتذكر كتب السيرة والتاريخ، أنَّ الرسول (ص) كان يلبس أربعة عمائم في أوقات مختلفة: الأولى عمامة محنكة، كان يلبسها في غالب أوقاته، والثانية عمامة سوداء كان يلبسها في الأعياد، والثالثة عمامة ذات ذئابة كان يلبسها في بعض أوقاته، والرابعة عمامة بيضاء كان يلبسها في غالب أوقاته، ودخل يوم فتح مكة (8هـ) وعلى رأسه عمامة سوداء، قد أرخي طرفيها بين كتفيه الشريفين وعلى مر التاريخ وتعاقب العصور والأجيال لم تفقد العمامة أهميتها - إلا في عصرنا الحالي - بل كانت في زمان مضى وانقضى هي الرمز المحبوب المستقر في قلوب وضمائر كلِّ العرب فهي اللباس المفضل لرؤوسهم، وكانت ذات اللوان متنوعة وتلف بهيئات مختلفة حسب الطراز السائد في كلِّ عصر، وعرف عن عربان البوادي أنهم لا يضعون عمائمهن عن رؤوسهم إلا نادراً وبسبب حاجة ترغّبهم على ذلك.

قيل لأعرابي: مالك لا تضع العمامة عن رأسك؟ قال: إنَّ شيئاً فيه السمع والبصر لحقيقة بالصون.

وهذا أعرابي يطلب من خليليه أن يشدا العمامة على كبده من ألم الجوي والغرام... فلنستمع إليه وهو يقول:

خليلي شدا بالعمامة واحزما *** على كبد قد بات صدعاً عمودها

خليلي هل ليلى مؤدية دمي *** إذا قتلتني أو أمير يقودها

وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقل ** قتلت ولم يشهد عليها شهودها

العمامة في اللغة العربية الفصحى:

العمامة: ما يلف على الرأس. والجمع عمام.

تعمم الرجل: ليس العمامة على رأسه.

العممة: هيئة الاعتمام. والعممة: العمامة.

السلطان العثماني محمود الثاني يمنع العمامة ويفرض الطربوش:

أصدر السلطان العثماني محمود الثاني (ت 1839م) فرماناً "مرسوماً" سلطانياً "وجهها" لجميع موظفي الدولة من عسكريين ومدنيين "كان الأمر في البداية يخص العسكريين ثمَّ فيما بعد شمل الموظفين المدنيين" أمرهم السلطان بموجب هذا الفرمان بأن يتذمروا العمامة من على رؤوسهم ويلبسوا بدلاً منها الطربوش التركي، واعتراض الكثير من رجال الدين الإسلامي ورجال الدولة على هذا الأمر المخالف للشرع، ولكن السلطان محمود أصر على تنفيذ أمره في كلِّ الولايات العثمانية، وأمر الولاة ورجال الحكم باستخدام الشدة والغلطة وعدم التهاون واللذين مع المعارضين، وأمر بسجن كلِّ من يرفض أو يعتراض على تنفيذ وتطبيق أمره السلطاني، وفعلاً تم سجن الكثير من رجال الدين والدولة، وتم تسريح وإنهاء خدمات العديد من رجال الدولة من عسكريين ومدنيين بسبب موقفهم الرافض لأمر السلطان، ولكن مع مرور الوقت نفذ أمر السلطان والتزم به الجميع فاختفت العمامة من على الرؤوس وحل محلها الطربوش، واستبقى الذكريات الخالدة للعمامة العربية في قلوب وضمائر أجيال العرب على مرِّ العصور وتتابع السنين،

إنها التاج الـكريم الذي زين رؤوس كلّ القادة العظام والرجال الأفذاذ الذين انطلقا من جزيرة العرب وحملوا الإسلام العظيم وخيره لكلّ بقاع الدنيا، ولقد صدق شاعر العرب أبو الطيب أحمد المتنبي (ت 354هـ) عندما قال وأصفاً هؤلاء الرجال:

من كلّ أبيض وضاح "عما مته" *** كأنما اشتملت نوراً على قبس

وأصل اسم الطربوش جاء من "سر بوش" والتسمية مركبة من "سر" أي رأس، ومن "بوش" أي غطاء، فيصبح معنى "سر بوش" هو غطاء الرأس، وقيل إن أصل التسمية جاء من اللغة التركية أو من الفارسية.

"عامة" الحاج الثقافي أرهبت الناس ودخلت التاريخ! :

أبو محمد الحاج بن يوسف الثقفي، أحد جيابرة العرب وساحتها وقادتها، من أعظم الخطباء المتميزين في التاريخ العربي الإسلامي، كان في بداية حياته معلماً لأطفال قبيلةبني ثقيف في الطائف، ثم خدم في شرطة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بن الحكم (ت 86هـ)، وما زال يترقى حتى ولد قيادة الجيوش، وقضى على كثير من الفتنه، ووحد شمال الأمة، ولكنـه كان شديد القسوة، سريعاً إلى سفك الدماء، توفي بمدينة واسط بالعراق سنة 95هـ.

قال عبد الملك بن عمر الليثي: " بينما نحن في المسجد الجامع بالковفة، وأهل الكوفة يومئذ ذوي حال حسنة، يخرج الرجل في العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آت فقال: هذا الحاج قد قدم أميراً على العراق، فإذا به قد دخل المسجد معتماً بـ"عامة" قد غطى بها أكثر وجهه، متقدلاً سيفاً، متوكلاً قوساً، يؤم المنبر، فقام الناس نحوه، حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبّح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق، حتى قال عمير بن ضابي البرجمي: ألا أحصبه لكم! فقالوا أمهل، حتى ننظر، فلما رأى عيون الناس إليه، حسر اللثام عن فيه، ونهض ثم قال:

أنا ابن جلا وطلع الثنایا *** متى أضع "العامة" تعرفوني

ثم قال:

يا أهل الكوفة، إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطاها، وإنني لصاحبها، وكأنني أنظر إلى الماء بين العمائم واللحى، ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم *** قد لفها الليل بسوق حطم

ليس براعي إبل ولا غنم *** ولا بحزار على ظهر وضم

قد لفها الليل بعقلبي *** أروع خراج من الدوي

مهرج ليس بأعرابي

قد شمرت عن ساقها فشدوا *** وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد ** مثل ذراع البكر أو أشد

لابد^٣ مما ليس منه بد

المصدر: مجلة الكويت/ العدد 320 لسنة 2010م